إشكالاتنا النقدية والفكرية من المنظور الخلدوني

أ. زغــوان محمد
المركز الجامعي مولاي الطاهر بسعيدة

الأدب والحياة توأمان مقالة نتصور أنها تصدق إلى حد كبير على الظاهرة الأدبية بكل مكوناتها وتمظهراتها إذ من إشكالات الواقع وقضايا الحياة الإنسانية ومن جملة تناقضاتها يترشح الأدب ليغدو الصورة العاكسة للنمط التفكيري والمشاعري والذوقي للإنسان.

وفي هدي هذه الرؤية يحاول ابن خلدون أن يعمل رؤيته النقدية ليؤسس لأحزمة من مفردات النشاز والتوتر، والتي لا تزال تحكم بنيتنا التفكيرية والثقافية في بلاد المغرب العربي تحديدا، وتنخس في جنباتها الانثيالات .

ومما يعطي لعمله هذا سمة الوجاهة، ويوجب التوقف عنده بكثير من التواضع والاستماع طبيعة الرأي الذي يبديه والذي هو خلاف ما نحب أن نسمع عن أنفسنا من صور التبجيل والمدح، وكون الرجل مطلعا وابن البيئة وينظر لها من موقع الخبير العارف، والعالم المجتمعي .

فكثيرا ما تلتبس علينا الحقائق وغاية ما نقوم به أننا نعلقها على مشجب الاستعمار، ونعفي أنفسنا من المسؤولية، ثم نذهب لننام قريري العين، وما ذلك إلا لأننا نمارس فنتازيا التملص من حمل تبعات أخطائنا ومواقفنا.

ونحن هنا لا نحامي عن الشيطان لأننا نعتقد أن المعادلة الاستعمارية تتحمل قدرا كبيرا من مأساتنا الأدبية، ومشكلتنا مع هويتنا بمعناها الجامع.

ولكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد، ولا يمكن اختزالها في الاستعمار وحده لأننا نتصور أن هذا الفلتان في الهوية، وعقوق الذات هو عرض لجرثومة أبدية تعيش في الجسم المغربي قبل أن تجهز عليه فلول الغزاة .

لقد انتقد ابن خلدون الفارابي لأنه حاول أن يدرس المجتمع العربي من موقع الآمال أي كما يأمل أن يكون لا كما هي كينونته في أرض الواقع، كما انتقد ابن رشد لأنه أعمل الأدوات الأرسطية في دراسة مجتمعه العربي، فكان كمن يبحث عن العمائم في دنيا القبعات.

وهو ما يحاول ابن خلدون استدراكه على دراسات سابقيه كونها تتجاهل الواقع وتعمل على تغييبه وتجاوزه لأنها تفتي فيه من منطلق المعرفة النظرية التي لا رصيد لها من واقع الحركة البشرية، في حين يعمل هو على تلافي ذلك كله باستحضار الواقع والانطلاق من عقده وإشكالاته، وبناء مقروئياته في ضوئه.

إن ابن خلدون يفتح أعيننا على البقع المعتمة في بنيتنا الثقافية والأدبية بمصارحة ومكاشفة قل نظيرها، فهو يسمي الأشياء بمسمياتها، ويلتزم فيها بالمصطلحات الدقيقة التي تتجه رأسا للشيء دون مساحيق تجميلية ، ودون تهيب من عرض المساءلات المحرجة التي تستفز الباحث عن الأجوبة المعلبة، فتضعه قبالة مواقع ملتهبة، ومثل هذه الطروحات وعلى هذا المستوى قد تؤذيه حتى في شخصه لعرضه الحقائق مكشوفة ، وما أكثر الذين يضايقهم النقد الصريح والجاد، ولا يطيقون أن ينظروا للمرآة ليروا حقيقة أنفسهم كما هي لا كما يحبون رؤيتها أو كما يزيفها لهم من عودوهم الانتشاء بالكلمات العذبة.

ونحن لا نعتقد الكمالية في هذه القراءة الخلدونية لواقعنا بقدر ما نريد أن نسمع له ونعرض وجهة نظره باعتباره علما من أعلامنا، ويمثل لنا رؤية من داخل بيتنا المغربي، وهو ليس من الأغيار الذين كثيرا ما يُتهمون بالتحامل، ومجافاة روح الاعتدال، وليس لنا أن نزايد عليه في عروبة أو انتماء، وإذا تقرر هذا فلنختلف معه كما نشاء، ولا تسعنا مخالفته إلا بعد معرفة وجهة نظره .

ولعل ابن خلدون كان يستشعر مثل هذه المواقف الضيقة الصدر بكل ما لا يتفق وما يعتقد الناس، أو يخالف ما ألفوه من أهواء وأضاليل وهم يرون فيها الحق الصراح، فراح ينبه على هذه الحالات النفسية القلقة غير السوية قائلا " فالنفس إذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ، فتقع في قبول الكذب ونقله " (1) .

إذن ما يطرحه الرجل شيء بدا له فآثر تسجيله دون خلفيات أو حسابات، ولا نزعم لأي كان المعصومية إذ الحقيقة نسبية، وما من عالم إلا رد ورُدّ عليه

وبعد هذا التقديم المتحفظ للمداخلة بقصد تهيئة أرضية الموضوع نقوم بعرض الإشكالات التي يفترض ابن خلدون أنها أعاقت النهضة الأدبية بالمغرب، وجعلته يتخلف عن مسايرة الحركة المشرقية والأندلسية، ويتأخر عن المتابعة :

<u>1- النفسية المغربية غير المستقرة (المقاتلة/ شخصية العنيف) :</u>

يرتبط الفعل الأدبي في البيئة المغاربية بنفسية العسكري المقاتل وتجذرت هذه النفسية وتعمقت مع التاريخ ربما لأن المغربي كان على الدوام في سجال مسلح منذ الفتح الإسلامي حيث كان في الصفوف الأولى للفتوح والزحوف المتقدمة ما وراء الأطلسي والمتوسطي، إضافة للاحتراب الداخلي الذي أسهم أيضا في تثبيت معالم هذه الصورة النمطية.

لقد كان الشعر بالواقع وسيلة لتجييش الجند، وتحريك الهمم، ويذكر ابن خلدون كيف كان الشاعر من قبائل " زناتة من أمم المغرب يتقدم.. عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة " (2) .

فابن خلدون يضعنا في صلب التركيبة النفسية للمغربي المقتصرة على الضروري من كل شيء، فالنظرة للشعر ارتبطت بدوافع براغماتية حيث يغدو الشعر سلاحا تعبويا وتحريضيا، وهي المقاربة نفسها يستدعيها حكم التاريخ في الفترات المتأخرة ببلاد المغرب العربي وبيان ذلك على سبيل النمذجة ما عرف أيام حكم المرابطين، وتسميتهم لدولة باسم حربي هو " الرباط " ، وأقاموا أساس ملكهم على هذه الفكرة، وبلغ من سطوتهم وشدة بأسهم أنهم حالوا دون سقوط بلاد الأندلس في يد النصارى مدة قرن ونصف من الزمن، ثم تحول وجودهم في تلك الجغرافية الأوربية ببلاد الأندلس إلى فتح وضم بالإكراه، فاستشرت العداوات والحروب والغزوات المرابطية ضد من جاءوا لنصرتهم ولعل مقالة يوسف ابن تاشفين تختصر المعنى والتاريخ والموقف عندما ذكر ما نصه " كنت أظن أني قد ملكت شيئا، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ".

وبالمناسبة نستحضر هنا مقاربة نمطية تاريخية بوجهين:

أ. <u>الوجه الأول</u>: صورة فرنسا حين أعدت العدة لغزو مصر قامت باستقدام أدوات الطباعة والكتابة والورق بموازاة مع الحضور العسكري، انطلاقا من المسح الاستشراقي القبلي القائم على استدعاء الخلفية الحضارية للخط والكتابة الفرعونية التي لا تزال مثار جدل وبحث في أوساط الباحثين، ومراعاة فرنسا لهذه الخصوصية الثقافية للمصريين يجري من باب خطب ودهم والظهور في أعينهم بمظهر الناشرين للعلم، والفاتحين للبلدان بالحضارة والعمران، ويكفي أننا نؤرخ لنهضتنا الحديثة بدءا من هذا التاريخ .

ب. الوجه الثاني: صورة فرنسا وهي تنزل غازية الجزائر فتضع خطتها بتمامها على الحسم العسكري بعد تمشيط المنطقة ثقافيا من دوائر استشراقها التي أوحت إليها بما يجب عليها القيام به في الحالة المغربية حيال نفسية المغربي العسكرية العنيفة.

المغربي الذي ينحدر من ثقافة محاربة وممانعة وهي كل إرثه الفكري والثقافي الذي دخل وعيه وشكل وراثته الحضارية على مدار التاريخ، وأن كل فخره وزهوه يتمحور حول الأمجاد العسكرية والبطولات الحربية.

وعليه فمنطق المواجهة يقضي مقارعته بسلاحه، وقد أشار ابن جبير (ت641هـ) في رحلته إلى ما يتعرض له الحجاج المغاربة من سوء معاملة في مرورهم على عكة، وما يفرضه عليهم الإفرنجة من مكوس في حين لا يعترض على غيرهم من بلاد المسلمين، والسبب في ذلك أن طائفة من أنجادهم كانت تغزو مع نور الدين، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، وقد عرف عنهم النكاية بالعدو والعنت(3)

غلبة البداوة وعراقتها

يتأثر ابن خلدون هذا الأمر في حركة العمران " إذ عظمة البنيان من عظمة الإنسان " ، ويؤكد علماء النفس حديثا على أهمية النسيج العمراني المتماسك جماليا وفنيا مما ينعكس على نفسية قاطنيه بصورة إيجابية فيمتع العين، ويحرك مشاعر الإحساس والفخر والجمال، ويرقي الذوق .

وفي الحالة المغربية تحديدا يربطه بدخائل الأنفس القلقة التي لا تعرف الاستقرار الذي يعد أحد شروط العمران الأساسية حيث يلاحظ فقرا في إحسان البناء وإتقانه، وقلة المدن والأمصار على العموم فيقول : " الأقطار كانت للبربر* منذ آلاف السنين قبل الإسلام ، وكان عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها " (4) .

ولعل في عدم الاستقرار داخل حدود جغرافية بعينها لغلبة حياة الحل والترحال على القبائل خير ما يدلّ به على ذلك التوتر المتصل في حركة التاريخ المغربية والذي يقف حائلا دون رسوخ الحضارة التي من أبسط قواعد نشوئها الاستقرار لأن النفوس المشوشة غير القارة لا تبني حضارة ولا تصنع ثقافة .

أما في الحالة المشرقية فيتصور ابن خلدون أن " المشرق رسمت فيه أحوال الحضارة منذ ملك الأمم القديمة من الفرس والنبط والقبط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة " (5) .

فالحضارة تبعا لهذا الرأي نتاج بشري مشترك، وميراث حيادي الجنسية فكل أمة ضاربة فيه بسهم مع تفاوت في الحظوظ، ومثل هذه الفرصة من المصاهرة الثقافية والانفتاح على الآخر، فهي وإن أتيحت للأمة الإسلامية على نطاق واسع ــ وهذا سر كل تلك الإسهامات الرائدة والأعمال المبدعة التي أفاءت بظلالها على البشرية ردحا من الزمن ــ غير أن هذه المصاهرة الانفتاحية لم تتح لأهل المغرب بالصورة المطلوبة .

2- ضعف صناعة التعليم لغلبة القيم البدوية

هذه نتيجة لحقائق على الأرض يلتقط ابن خلدون مفرداتها بالمعنى الذي يفيد أن أحوال الحضارة عند المغاربة " ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها "(6)وإن المنحدرين من أصول البداوة يعوزهم الامتداد الذي يصلهم بالحضارة بالمعنى المتقدم كما في الحالة المشرقية فيقول " إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو " (7).

وحتى في حال تواصلهم مع غيرهم ــ ربما من سوء حظهم ــ ظل هذا التواصل مقتصرا على نظراء لهم يصدرون من بيئات بدوية صرفة فـ " إفريقيا والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة ، وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين.. عادت بسائطه خرابا كلها .. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت " (8) فمصر برأيه نشأت حضارتها عن أحوال الحضارة الضاربة في عمق التاريخ، وصرحها العلمي لعهده شادته أجيال تترى في تسلسل تدريجي منطقي في حركة الزمن.

لهذا كان " أهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى الشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب. وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب، ويعتقدون التفاوت

بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية، ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع " (9) .

وابن خلدون يتحفظ على هذا الكلام غير المستند لعقل ولا علمية فيه إذ الأقدار لم تظلم أحدا. اللهم إلا ما يكون من أمر الكسب وامتداد الحضارة ويجيب بما نصه " إنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد .. في الصنائع ذلك أن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين، والدنيا وكذا سائر أعمالهم، وعاداتهم، ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم، وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم " (10).

3- الاقتصار على الحفظ

يظهر أن النزوع إلى الحفظ كثيرا ما يحصر همة صاحبه على الرواية، وعندها ينحسر دور الدراية الواعية المؤهلة للتصرف في أفانين الكلام، فتباحث وتناقش، وتحاول أن تفهم وتعلم ــ في الغالب الأعم ــ وهذا ما يرصده ابن خلدون في جيله من المغاربة " فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده "(11)، والسند من منظوره قد يكون مشرقيا أو أندلسيا في الجملة وهي حواضر العلم والمعرفة العالمية تاريخئذ .

" وحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك .. (12) ، كما " أفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام " (13) .

4- طغيان الروح الفقهية على العمل الأدبي:

جملة الأعمال الأدبية لقدامى المغاربة مطعمة إلى حد التخمة بالنزعة الفقهية وهذا الموقف من منظور ابن خلدون يتأدى إلى حقيقة مفادها أن " الشعر في الربانيات قليل الإجادة في

الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول وفي القليل لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك .. لهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة، وما ذلك إلا ما يسبق إلى محفوظهم، ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية.. لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة.. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم.. ويروي الفضل بن رضوان كاتب الدولة المرينية. قال: ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له:

لم أدر حين وقفت بالأطلال　　　ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال على البديهة هذا شعر فقيه، فقلت ومن أين لك ذلك ؟ . قال : من قوله ما الفرق ؟. إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب. فقلت له: لله أبوك إنه ابن النحوي " (14). ويسجل أن بلاد المغرب " أكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها " (15) والعلوم الفقهية كانت هي كل مبلغ علمهم، وجملة تحصيلهم، وربما نظروا لغيرها نظرة الريب والتشغيب، وأسهمت السياسة في محنة المثقف ومحاصرة الرأي المخالف، والوصاية على أفكاره وقناعاته، واتخذت لهذا الغرض طبقة من الفقهاء والشعراء للقيام بدور رأس الحربة التي بها تصول وتجول.

فلقد قام فريق منهم بحملة ظالمة على كتب الغزالي، فأفتوا بحرقها ومصادرتها، وقد عبر عن هذا الموقف المتطرف أبو حيان (ت 754 ه) بقوله الباعث على الدهشة من فلاسفة عصره وحكمائهم فيقول عنهم بالنص إنهم : " أحق بأن يسموا سفهاء جهلاء من أن يسموا حكماء، إذ هم أعداء الأنبياء والمحرفون للشريعة الإسلامية، وهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى.. ولقد غضضت مرة ابن سينا ونسبته للجهل فقال لي بعضهم وأظهر التعجب من كون أحد يغض من ابن سينا: كيف يكون أعلم الناس بالله ينسب للجهل ؟.

ولما ظهر من قاضي الجماعة يعني ابن رشد ـ الاعتناء بمقالات الفلاسفة والتعظيم لهم، أغرى به علماء الإسلام بالأندلس المنصور منصور الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ملك المغرب والأندلس حتى أوقع به ما هو مشهور من ضربه ولعنه وإهانته وإهانة جماعة منهم على رؤوس الأشهاد ، وكان مما خوطب به المنصور في حقهم قول بعض العلماء الشعراء:

خليفتنا جزاك الله خيرا　　عن الإسلام والدين القويم

وهكذا انخرط الشعراء في هذه الحرب على الفلاسفة، ودعوا إلى نصب المشانق لهم، وقد أسهب أبو حيان في عرض مقطوعات شعرية لشعراء عدة كلهم يعادي الفلسفة ويتقرب بإهراق دمها إلى السلطان ومنها قولهم في الانتصار لصنيع الحاكم

فجاهد في أناس قد أضلوا　　طريق الشرع بالعلم القديم

وحرق كتبهم شرقا وغربا　　ففيها كامنا شر العلوم

الدعوة إلى قتلهم: وفي أمثالها إذ لا دواء　　يكون السيف ترياق السموم.

ويستعرض أحزمة من الشعر لشعراء متفرقين.

ولما حللت بديار مصر ورأيت كثيرا من أهلها يشتغلون بجهالات الفلاسفة ظاهرا من غير أن ينكر ذلك أحد تعجبت من ذلك ، إذ كنا نشأنا في جزيرة الأندلس على التبرؤ من ذلك والإنكار له، وإذا بيع كتاب في المنطق إنما يباع خفية، وإنه لا يتجاسر أن ينطق بلفظ المنطق، إنما يسمونه المفعل، حتى أن صاحبنا وزير الملك ابن الأحمر أبا عبد الله.. المعروف بابن الحكيم كتب إلينا كتابا من الأندلس يسألني أن أشتري أو أستنسخ كتابا لبعض شيوخنا في المنطق، فلم يتجاسر أن ينطق بالمنطق وهو وزير، فسماه في كتابه لي بالمفعل " (16).

5- الثقافة الشفوية:

ارتبطت الثقافة الشفوية بالمجتمعات البدوية ، وهذا ملاحظ مشهور في البوادي ــ وإلى اليوم ــ من قلة الكتاب والقارئين، وعرف الإنسان الحضارة يوم أن عرف الكتابة، ولذلك كان التأسيس النهضوي الأول الذي قام عليه الإسلام في مبدإ أمره أنه اعتبر القضاء على مشكلة الأمية مشروع الحضارة الأول، والتحدي الأخطر لأي دعوة فكان ما كان من جعل التعليم في الأدبيات الإسلامية مرادفا للحرية كما صنع المسلمون في غزوة بدر من فداء الأسرى مقابل تعليم كل أسير لعشرة من أبناء المسلمين، وجعل الأمية مرادفا للأسر.

أما في المغرب فشيوع الثقافة الشفوية لا يمكن أن يتذرع له إلا بتفشي لطخات الأمية الآثمة وإلى اليوم لا تزال تضرب بأطنابها برغم الانتشار العلمي الهائل الذي ملأ الدنيا، وشغل الناس .

إن الحديث عن الوراقة والدواوين والسجلات والنسخ والتجليد وغيرها من لـوازم الخط وترتيباته تعيش وضعا مرتبكا " فلقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملـة بـالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله "(17).

أما " الخطوط مائلة للرداءة بعيدة عن الجودة ، وصارت الكتابة إذا انتسـخت فـلا فائـدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثير ما يقع فيها مـن الفسـاد والتصـحيف ، وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر، ووقع فيه ما وقـع فـي سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول "(18). ويربط ابن خلدون هذه اللوثة الإنسـانية (الأمية) بنقص في الحضارة، وفساد الدول، وقد يقف فساد الدول مانعا دون الحضارة.

6- فقه البداوة (سيادة المذهب المالكي):

ينطلق ابن خلدون في تحرير هذه المسألة من نقطة جوهرية تتعلق بالمذهب المالكي نفسه على خلفية قيامه على الحرفية والسلفية التي تبعد النظر العقلي في مقابل بالماضـوية والاتباعية ويخلص إلى النتيجة التي مؤداها أن " العقليات-أي عند المغاربـة- لا أثـر ولا عين.. فتآليف الحنفية والشافعية أكثر من المالكية فهم أهل النظر والبحـث أمـا المالكيـة فالأثر أكثر معتمدهم، وليسوا بأهل نظر، وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل "(19).

وطبيعة المذهب تستبعد الجوانب الجمالية اتساقا مع طبيعة البادية التي تقوم على الحـاجي في كل شيء، ويمثل صاحب المقدمة بقراءة القرآن إذ " كثير من القراء يقـرأون القـرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم، وتناسب نغمـاتهم.. وقد أنكر مالك القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله عنه" (20) ، وما ذاك إلا لأن للبيئة حكمها المطرد والحاسم في كثير من القضايا، وبالتالي فالفقه الأندلسي الذي نما فـي بيئة حضرية حيث الرياض والبساتين ، والنسيم العليل، والخضرة والماء والوجه الحسـن، لا شك أنه يختلف بحكم هذه البيئة عن فقه البداوة حيث الصحراء، وشح السماء، وجـدب الأرض ، وشظف العيش، وقساوة الحياة بالجملة.

وعن سبب اقتصار المغاربة على تقليد مالك دون غيره إلا في القليل- هذا إذا ما تجاوزنـا العامل السياسي في نشر المذهب ببلاد المغرب العربي- فعائد " لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم.. والبداوة غالبة عليهم.. وكانوا لأهل الحجاز أميل لمناسبة

البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضـارة وتهـذيبها كما وقع في غيره من المذاهب " (21)

وهو يشير هنا إلى مسألة على غاية من الخطر وهي السكونية السـالبة التـي لا يختلف أمسها عن راهنها لأن المجتمعات الحية المتوثبة تجد لهـا مـن الأقضـية بحكـم تحديات الواقع وحركيتها ما يجعلها تنفتح على أكثر من مذهب لتتعاطى معه بفعالية فتأخذ وتترك، لا أن يستهلكها المذهب لتغدو مثل المخزن .

7- استحكام العجمة:

وهي ظاهرة مرتبطة بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد ويتواصل مـع جماعتـه اللغوية فسيبويه مثلا والفارسي والزمخشري وإن لم يكونوا عربا بالأصالة فهم عرب مـن حيث المنشأ والمربى ، والحالة نفسها تنطبق على العرب الناشئين بالبلاد المغربية فمـن " مخالطتهم البرابرة من العجم غلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهـم، وصـارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب " (22) .

والعجمة مستحكمة إلى الحد الذي لم ينفع معه التعليم " والمغرب لما كانوا أعرق فـي العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم " ويمثل لنـا بما " كتب بعض كتاب القيروان لصاحبه: يا أخي ومن لا عدمت فقده، أعلمني أبو سـعيد كلاما أنك كنت ذكرت أنك تكون من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا، لـيس هـذا حرفـا واحدا، وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله " (23) و" المدة المعينـة لطلبـة العلـم بالمدارس ستة عشر سنة.. فطال أمدها في المغرب لأجل عسرها من قلـة الجـودة فـي التعليم خاصة " (24).

والقول الأخير هو ما ينبغي أن يسار إليه فالقصور لا يرتبط بالطبيعة أو بما يدخل في الحقيقة الإنسانية وإنما عائد لرداءة التعليم في المغرب ــ كما يصرح بنفسـه ــ فالملكـة تتحصل بالصناعة متى روعيت قواعد التعليم الصحيح ومناهجه.

وقد أعرب ابن جبير (ت614 هــ) في رحلته عن إعجابـه واستحسـانه لطريقـة المشارقة في تعليم القرآن ــ حين وفادته على المشرق ــ حيث يعلمون الخط في الأشـعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون الملقـن غيـر المكتّب ، والمتعلم ينفصل عنده التلقين عن التكتيب وهي سيرة حسنة " (25) .

وبعـــــد :

هذه بعض الفذلكات عن الواقع الذي عايشه ابن خلدون وعمد إلى نقله مـــن صـــورته الاجتماعية إلى صورته اللغوية، وهي مجرد قراءة في الواقع المغربي فـــي لحظـــة مـــن التاريخ استوقفها الرجل وأعمل فيها القلم والدرس، والحقائق لا تخلـــو مـــن النســـبية فـــلا صوب بالمطلق ولا خطأ بالمطلق بل في الأمر منطقة وســـطى يمكـــن أن تتعـــايش فيهـــا الرؤى المختلفة وتتحاور، والكلام أخذ وعطاء كما يقال .

الهـــــــــــوامش

(1) مقدمة ابن خلدون .دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. 2004م . ص 46.

(2) المصـــــــدر السابق. ص 247

*ـ والبربر ليسوا جنسا وإنما هي نموذج لنمط معين من الفكر، ويقال أن الرومان أطلقوه على غيرهم من الأمم التي هي خارج دائرة حضارتهم وثقافتهم تمييزا لهم عن الرومانيين.

(3) رحلة ابن جبير. الشركة العالمية للكتاب. (د. ت) . ص 210.

(4) مقدمة ابن خلدون. ص 339.

(5) المصـــــــدر السابق. ص 385.

(6) المصـــــــدر السابق. ص 127.

(7) المصـــــــدر السابق. ص 152.

(8) المصـــــــدر السابق. ص 417.

(9) المصـــــــدر السابق. ص 415.

(10) المصـــــــدر السابق.

(11) المصـــــــدر السابق. ص 414.

(12) المصـــــــدر السابق.

(13) المصـــــــدر السابق. ص 557.

(14) المصـــــــدر السابق. ص 597.

(15) المصـــــــدر السابق. ص 584.

(16) البحر المحيط. أبو حيان النحوي (ت 754 هـ)الجزء 6. دار الفكر. 1992م. ص 46 و47.

(17) المصـــــــدر السابق. ص 404.

(18) المصـــــــدر السابق. ص 401.

(19) المصـــــــدر السابق. ص 439.

(20) المصـــــدر السابق. ص 407.

(21) المصـــــدر السابق. ص 431 بتصرف .

(22) المصـــــدر السابق. ص 578.

(23) المصـــــدر السابق. ص 584 بتصرف .

(24) المصـــــدر السابق. ص 414.

(25) رحلة ابن جبير. الشركة العالمية للكتاب. (د. ت) . ص 191.